

علم النفس في القرآن



.. وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ..

لا السماء بما فيها من عوالم، ولا الفضاء بكواكبه، ونجومه؛ ومجراته، وشموسه، ولا الأرض بكنوزها، ومعادنها، وبحارها أكثر جدلاً من الإنسان... ولا أعقد مما يطويه في صدره، وما يسبح بين فؤاده داخل حناياه، وما يدور في تلك العظمة المجوفة التي تسمى الجمجمة.. وهكذا يؤكد القرآن الكريم إن الإنسان أعقد ما دب على الأرض من المخلوقات وأعظمها أيضاً.. .. وحينما منح ذلك الحيوان المتكلم القدرة على فهم أسرار هذا الكون.. شغله الوصول إلى أسرار ما حوله عن الوصول إلى أسرار نفسه.. تلك النفس التي وضعها القرآن الكريم في كفة واحدة مع الكون كله بما فيه من عوالم.. واستحقت من المسلمين الذين قرأوا القرآن وقفة طويلة، إذ تقول الآية الكريمة: (سَدُّ رِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) (فصلت/ 53)، ومهما كتب علماء النفس، بلا تجن - لو جمعنا كل ما كتبوه، وحاولوا فيه أن يصلوا إلى وصف دقيق للنفس البشرية.. فلا اعتقد أننا سنجد من وصل إلى هذه الصورة الدقيقة.. التي يشبهها القرآن فيها بالآفاق الكونية بكل ما فيها.. من جبال ووهاد وغابات وسماوات وأراض.. والكلام سبحانه وتعالى، وهو أدري بما خلق، وأبدع وأودع في النفس من أسرار!!

الشعور بالذنب!

وقد فرق القرآن الكريم بين الروح والجسد والنفس، وجاءت آياته تتحدث في بساطة بأدق نظريات علم النفس الحديث.. وفي قصه الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك التي قادها رسول الله (ص). يصف القرآن معاناة الشعور بالذنب، ويتحدث عن عذاب الضمير للثلاثة الذين تخلفوا في دقة مذهلة ومعجزة.. الثلاثة هم الصحابي كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وقد تخلفوا رغم الإعلان عن الغزوة والتجهيز لها.. فلما مضت الغزوة أحسوا بالإثم، وقاطعهم أهل المدينة إلى أن نزل فيهم حكم الله، وقد كاد كعب بن مالك يفقد عقله من تأنيب الضمير.. والقرآن الكريم يقول في هذه الأزمة النفسية التي عصفت بالرجال.. (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَوْا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا...) (التوبة/ 118).

ولو تأملنا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، من الشعور بالذنب والإحساس بالإثم، والرغبة في التفكير بالإضافة إلى الشعور بالدونية، وعذاب الضمير.. لو تأملنا وتصورنا ذلك الإنسان المنب، وقد ضاقت عليه الأرض.. ثم ضاقت عليه نفسه، وكأنها تابوت يضغطه داخله.. لوجدنا أنها أروع صورة رسمت بدقة للإحساس بالذنب كما تصوّرها أحدث كتابات علم النفس.

غريزة حبّ البقاء!

وفي سورة "الكهف" تصوّر الآية مشهد أهل الكهف، وقد تعاقت عليهم السنون، فتحوّلوا إلى صورة تفرغ القلب، وتروع النفس فتقول (لَوْ اِطَّاعْتُمْ اَعْلَیَّهِمْ لَوَلَّيْتُمْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتُمْ مِنْهُمْ رُعْبًا) (الكهف/ 18)، وتجيء أحدث نظريات علم النفس بعد أربعة عشر قرناً لتقول: إن الإنسان حينما يفزع من خطر.. فإن غريزة حبّ البقاء تدفعه إلى الفرار بعيداً عن مصدر الخطر.. مجرد إحساسه بالخطر يحشد فيه قوّة غير عادية لا يمكن أن يحصل عليها في حالات الاطمئنان، وتجعله يأخذ نفسه بعيداً بعيداً.. كالذي يقفز من الطابق الثاني إذا ما شعر بأنّ بيته محاصر بالنيران.. وقد ينطلق بعد القفز فاراً مبتعداً عن مكن الخطر.. ثمّ يتبيّن بعد ذلك أنّه قد أصيب أو لحق به أيّ ذي.. أو كالذي ينقلب به زورق بالقرب من الشاطئ دون أن يكون على علم بالسباحة، ورغم ذلك فإنّه يناضل بجنون حتى يصل إلى الشاطئ.. فإذا خرج نظر إلى المسافة التي سبجها وهو لا يصدق.. والآية تحدد بدقة حالة غريزة حبّ البقاء حينما تقول.. لوليت منهم فراراً مما يقع عليه بصرك من بشاعة ما فعلته الأيام بالجنث.. إذ لن تستطيع أن تحدد إن كانوا موتى أو أحياء.. فإذا فررت بعيداً.. امتلأت بالرعب بعد ذلك.. وهي آية يزداد إحساس القارئ بعمقها في ضوء علم النفس..

والهرب ساعة الإحساس بالخطر، والفرع المفاجئ ينجلي في الآية التي جاءت في سورة القصص والتي تقول: (وَإِنَّ أَلَقَ عَصَاكَ فَلَمْ يَكُ رَاحًا تَهْتَزُّ كَأَنَّ زَهَّاهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَأْ مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ...) (القصص/ 31). والقرآن الكريم يصف حالة موسى (ع) النفسية.. موسى الذي شاهد ناراً في الليل.. فترك أهله وجاء ملتمساً بعض هذه النار لكي ينتفع بها.. وقد غادر بيت لحم والد زوجته بعد حياة مطمئنة عشر سنوات.. ودخل بزوجته في الصحراء يحاول أن يبدأ معها حياة مستقلة.. ولهذا ورغم ما أودع في من أسرار النبوة، وقدسية الرسالة إلا أنّه ما يكاد يرى عصاه تتلوى وتهتز صاعدة هابطة، وهي التي كانت منذ برهة.. جذع شجرة.. طالما توكأ عليه وهش به على غنمه.. وقد تحوّل إلى كائن حي.. حتى يفزع فيولي مديراً.. يهرول بعيداً عن مكان الخطر الذي يخشى منه على نفسه.. لولا نداء ربه (يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ) وهنا تقفز غريزة حبّ البقاء لتؤكد نفسها فيما صدر عن موسى (ع)..

الغضب:

وموسى (ع) كان ذا شخصية انفعالية سريع الغضب.. وإذا رجعنا إلى طفولته وسلطنا عليها أضواء علم النفس الكاشفة.. فسوف نجد أنّها مشحونة بالتوترات ملأى بالقلق بعيدة عن كلّ ما يوفر الشعور بالأمان لطفل رضيع.. وقد توصّل أحد أطباء الأمراض النفسية للأطفال إلى أنّ الأمّ والرضيع يكونان وحدة واحدة من الوجهة النفسية، وإنّ أيّة انفعالات للأمّ كثيراً ما تنعكس على الرضيع، والأمّ التي تعاني من القلق أو من الحزن ينصحها طبيب الأطفال بعدم إرضاع طفلها فترة حزنها أو قلقها.. وأمّ موسى هي التي قلقت أعظم قلق حينما وضعت في الصندوق، وحينما أرسلت أخته تتبع آثاره على الشاطئ.. ثمّ حينما عاد إليها لترضعه، كلّ ذلك جعل موسى (ع).. يثور عند الغضب إلى حدّ يلقي فيه بالألواح.. ويصوّر القرآن الكريم "الغضب" على أنّه من الحالات النفسية التي يسقط الإنسان فيها تحت وطأة قوّة أقوى منه.. يملك الغضب فيها ضحيته ويوسوس إليه بما يريد. بل يدفعه دفعاً دون أن يملك الغاضب الخروج من حالة الغضب.. وحينما تقرأ الآية الكريمة التي جاءت في "سورة الأعراف" (وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَوْسَى إِلَهٌ قَوْمِهِ غَضَبًا أَنْ أَسْأَفًا قَالَ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْإِنْسَانَ فَاصْبِرُوا لَهُ وَأُخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ) (الأعراف/ 150).

وهي صورة قوّة للغضب حينما يستولي على الإنسان.. فإنّ موسى ألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه، ويعنّفه، ويلومه على ما فرط فيه.. أي إنّ الغضب اقتحم موسى وراح يوجهه حيث يريد.. ولعلّ القلق الذي لازم طفولة موسى قد ترك بصماته النفسية على كلّ تصرفاته طوال حياته.. حتى عندما ناصر الذي من شيعته على الذي من عدوه.. يوم إن لكزه ففضى عليه.. ويعود القرآن فيصوّر الغضب بصورة

الصوت المسموع الذي يأمر فيطاع.. إذ تقول الآية الكريمة: (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ...) (الأعراف/ 154)، وفي بعض القراءات ولما سكن عن موسى الغضب بالنون لا بالتاء.. والسكون ضد الحركة.. أي إن الغاضب يصبح مسرحاً لعريضة الغضب وهياجه لا أن يسكن عنه.. وهي من أجمل الصور وأدقها للغضب حينما يستولي على الإنسان..

الكبت والانحراف!

وفي سورة "يوسف" أبدع الصور النفسية لكل الحيل اللاشعورية التي يلجأ إليها الإنسان في معاملاته النفسية، والتي يسميها علم النفس آليات عقلية يغالب بها المرء إحباطه، وقلقه، وتوتره الذي يتولد من فشله في محاولاته تحقيق رغباته كلها أو بعضها..

فأخوة يوسف مثلاً طلبوا ضحايا الكبت الذي يحاولونه لكي يدفنوا رغبتهم في التخلص من يوسف حتى يخلو لهم حبّ أبيهم، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها وكبتها فكانت تبدو فيما يصدر منهم من أعمال أو كلمات ضد يوسف (ع).. مما جعل يعقوب يتشكك في دعوتهم ليوسف إلى اللعب معهم - فقال لهم: (وَأَخَافُ أَنْ يُبَادِلَهُ الذِّبُّ وَأَنْزِتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) (يوسف/ 13)، وكان نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم.. فكل ما كان يهمهم أن يحققوه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه.. فاتفقوا اتفاقاً جنائياً على قتله وتلطّيح قميصه بالدم، والادعاء أن الذئب أكله، وهم بعيدون عنه لأنهم ذهبوا يتساقون وتركوه عند متاعهم.. ويذهب بعض المفسرين إلى أن التلفيق كان واضحاً لأن القميص لم يكن ممزقاً تمزيق آثار أسنان الذئب- مما جعل يعقوب لا يصدقهم، ولهذا كانت دعوته الدائمة لهم إلى أن يتقصوا آثار أخيه، ولو أنّه صدقهم في دعواهم لما أصر على أن يقتفوا آثاره..

التبرير والإسقاط!

وقد وقعوا في حالة (التبرير) التي يقول عنها علم النفس وهي الحيلة التي تقي الإنسان من الاعتراف بالأسباب الحقيقية لسلوكه غير المقبول، ويعمد المذنب إلى تفسير سلوكه لبيّن لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسباباً معقولة.. فهم يقولون: (يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبْدِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَا أَزْنَتْ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) (يوسف/ 17).

وإذا كان (الإسقاط) هو حيلة يسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الناس والآخرين.. ويهمه بالدرجة الأولى أن يلصقها بمن يظنّ أنّه يناافسه مباشرة.. كالزوج الذي يخون زوجته.. ثمّ يتهمها بالخيانة.. إذا كان هذا هو مفهوم الإسقاط في علم النفس.. فإنّ القرآن الكريم روى ذلك عن أخوة يوسف حينما دسّ يوسف صاع الملك في متاع أخيه وألقى القبض عليه بتهمة السرقة ليستيقبه دون أن يكشفهم عن شخصيته إذ تقول الآية الكريمة على لسانهم: (إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) (يوسف/ 77).

العمى النفسي!

وحينما عاد الأخوة ليفجعوا والدهم في ابنه الثاني شقيق يوسف، وأحب أولاده إليه بعد يوسف، وقد جدت هذه الصدمة الجديدة أحزانه القديمة على يوسف إذ تقول الآية: (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَاطِمٌ) (يوسف/ 84)، مع أنّهم نقلوا إليه خبر ابنه الثاني وليس يوسف، وذلك ما يطابق أحدث نظريات علم النفس.. وتبيض عيناه من الحزن.. فلم يعد يبصر فقد انتابته رغبة في العمى.. رغبة قوية سيطرت على إرادته.. فهو لا يريد أن يرى الدنيا وقد خلت من ولديه الحبيين.. وذلك هو العمى النفسي، ويدرك يوسف (ع)، وهو الذي أوتي علماً وحكمة بنص القرآن إنّ هذا العمى نتيجة لصدمة نفسية، وإنّه يمكن أن يشفى بصدمة مضادة، وتقول الآية على لسانه (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْطَوْهُ عَنِ وَجْهِهِ أَلْبِي يَأْتِ

بَصِيرًا) (يوسف/ 93)، ولا يختلف اثنان من علماء علم النفس في ذلك ولعلَّ أساطين هذا العلم لم يصل أحدهم إلى علاج له مثل هذه البساطة.. إذ يقول يوسف (ع)؛ (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْطَفُوهُ عِلَى وَجْهِهِ أَبْيَ يَأْتِ بِصِيرًا)، فإذا ما تأكد أبي أنسنا بين الأحياء، وإزته في الإمكان أن يراني.. فسوف يرتد إليه بصره إذعانا لرغبته التي سوف تتدفق داخله لرؤيتي.. إنَّ رغباتنا هي التي تقودنا إلى حيث نريد..

ثمَّ الرمزية التي جاءت في تفسير يوسف للأحلام الثلاثة.. حلم السجين الذي رأى نفسه يعصر خمرا، والآخر الذي رأى أنَّهُ يحمل طعاماً فوق رأسه ويأكل منه الطير.. ثمَّ حلم الملك الشديد الرمزية.. إنَّ كلَّ ذلك يجلُّ القرآن الكريم يتفوق في تفسيراته للنوازع والرغبات والسلوك الإنساني.. تفوقاً يجلُّ عن المقارنة، ويتنزه عن المنافسة لمجهودات كائناتٍ من كان من البشر في هذا المضمار!!

المصدر: كتاب القرآن.. نظرة عمرية جديدة/ سلسلة الفكر الديني المعاصر